

الإمكانات المذخورة

الدكتور عبد الغفار مُجَّد الشيزاوي

نشر في كتاب

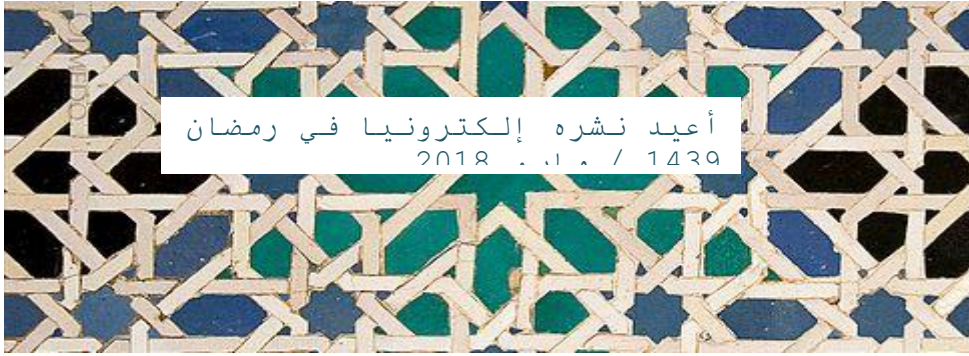
البعء الرسالي لمجلس التعاون
الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م



الإمكانات المذخورة

الدكتور عبد الغفار مُجَّد الشيزاوي^(*)

(*) باحث.. أكاديمي تربوي (سلطنة عمان).

إن العالم اليوم منتظر ومتربح لحضارة من نوع جديد، لأنموذج إنساني ولببدأ ينشئ إنسانية سعيدة،
ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة، شاملة لنواحي الحياة، وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة
تستطيع تمثيلها والاضطلاع ببعثها والتبشير بها، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام، والتي حدد
مسؤوليتها بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَذَائِرٌ لِّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ .

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى
آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:110).

لقد نشأ المجتمع الإسلامي الأول حينما انتقل الناس في أرض انبعاث الوحي
والنبوة والرسالة من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، مهتدين بهدي
رسولهم محمد ﷺ، منظمين حياتهم على أساس هذه العبودية لله والاهتداء برسوله تحت
شعار: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، اتباعاً كاملاً بلا تردد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:7).

فقام هذا المجتمع تحت راية الإسلام ورابطة العقيدة الإسلامية، راية جمعت الأسود
والأبيض، والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس
الأرض في أمة إسلامية واحدة، الأكرم فيها هو الأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

تشكل هذا المجتمع المسلم على الأصول والقيم الإلهية الثابتة والمنهج والنظام والقانون الذي أقام حضارة عالمية تقوم على سيادة القيم الإنسانية النبيلة، التي تنمي إنسانية الإنسان وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض القائمة على تحكيم منهج الله وشريعته في شؤون الحياة.

وهنا ينشأ التساؤل عن أولئك الذين أقاموا هذا المجتمع وهذه الحضارة العالمية، والذين كانوا أول المستجيبين لدعوة الإسلام الخالدة، ما أصولهم؟ وما مكوناتهم؟ وما أحوالهم؟ وما استعداداتهم؟ وما طبيعتهم الاجتماعية؟ وما لغاتهم ولهجاتهم؟ وهل يجمعهم تاريخ مشترك وعادات وتقاليد متجانسة؟

وقبل أن تتم الإجابة على هذه الأسئلة، يود الباحث أن ينوه إلى أن هذا البحث يأتي تلبية لمطلب من مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، لاعتزامه إعداد كتاب حول: « البعد الرسالي لمجلس التعاون: من استشراف الماضي إلى إِبْصَارِ المستقبل » وذلك بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر.

فجاء هذا البحث محتويًا على أهم المباحث في المحور الثاني: الإمكانات المذخورة، التي تتناول الإمكان التاريخي، والإمكان الثقافي والاجتماعي، والإمكان الاقتصادي.

تضمن الإمكان التاريخي: الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة، والتجربة الحضارية التاريخية للإسلام المنبعث من أرض الجزيرة.

أما الإمكان الثقافي والاجتماعي فقد تضمن عالمية الرسالة وإنسانيتها، والطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين، كما تضمن عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة

العربية، الذي اشتمل على:

أولاً: أثر العقيدة والقرآن في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثانياً: لغات ولهجات أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثالثاً: تاريخهم المشترك؛

رابعاً: عاداتهم وتقاليدهم؛

خامساً: سكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم الأسرية والقبلية؛

سادساً: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

وأخيراً الإمكان الاقتصادي، الذي ورد فيه تمهيد لتوزيع الثروة بين الناس في نظر الإسلام، والتجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة.. وختم البحث موضوعاته بموضوع النفط باعتباره مصدر الثروة الأكثر أهمية لاقتصاد دول الخليج العربية.

أولاً: الإمكان التاريخي

1- الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة:

حاجة العالم إلى منقذ:

أثبتت النصوص والآثار والروايات التاريخية أن العالم كان قد فسد في القرن الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ، وعاش العالم في ضياع أفراداً وجماعات، وحيثما التفتنا وأنى قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع فسوف لن نعثر إلا على الفساد والضياع. ومروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية؛ لا نجد إلا السوس ينخر في بنيان المجتمعات فيفسد كل شيء في حياتها.

إن العالم الذي بُعث فيه محمد ﷺ، عالم في أمس الحاجة إلى منقذ، وهو يفسر بوضعه الراهن ذلك، لماذا جاء الرسول ﷺ في ذلك العصر بالذات، إن القرآن الكريم ذكر طبيعة تلك الحقبة حينما قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: 41).

الهزة الوجدانية لشعار (لا إله إلا الله):

ما لبث الوحي الأمين أن جاء في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، الذين اختارتهما العناية الإلهية لإرسال محمد ﷺ إلى الناس كافة، محمد الذي لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة المصير الذي ينتظره والدور الذي سيكلف بأدائه إزاء الإنسان والعالم.

وما أن اطمأن الرسول ﷺ إلى صدق رسالته في أعقاب تأكيدات خديجة رضي الله عنها وابن عمها ورقة بن نوفل وإثر تكرار نزول الوحي عليه، حتى بدأ بأمر من هذا الوحي بالعمل، فكان عليه أن يدع مرحلة العزلة والانقطاع وأن يمزق دثار الخوف والقلق والشك، وأن ينطلق ليبدأ أولى اتصالاته من أجل بناء الحلقات الأولى من

الدعاة، أولئك الذين كتب عليهم أن يتحملوا شرف الانضواء إلى أول قاعدة بشرية للدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل.. وإذا كانت الدعوة الجديدة تتحرك تحت شعار (لا إله إلا الله) بكل أبعاده الشاملة وآفاقه الرحبة، فقد كانت تمثل رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية.

وكان القرآن الكريم ينزل خلال ذلك مؤكداً قضية واحدة وأمرأً واحداً لم يتجاوزها إلى المسائل الأخرى إلا قليلاً، تلك هي قضية (العقيدة) التي راح القرآن يجبك بأسلوبه المعجز وآياته البينات جوانبها الشاملة وبنائها المتشابك في نفوس أتباعه وعقولهم وضمايرهم، ويحيلهم واحداً بعد الآخر ويوماً بعد يوم إلى شخوص حية تتحرك بالقرآن، فتكون حركتها تعبيراً حيويًا واقعيًا عن التصور الجديد الذي طرحه القرآن.

إن التركيز والعمق الذي تميز به كل واحد من هؤلاء، جعل المنتمين إلى الإسلام قادرين بعد قليل على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي ستصب عليهم من أجل فنتتهم عن دينهم: تعذيباً واضطهاداً وقتلاً ونفيًا وسخرية وقطيعة واحتقاراً، وعلى تجاوز المحنة السوداء وهم أصلب عوداً وأعمق ثقة وأشد إيماناً.

كم من المسلمين قادتهم إلى الإسلام تلك الهزة الوجدانية التي أحدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهي تتلى عليهم، فتغسل ضمائرهم وتزيل ران قلوبهم وتعيد ألق الذكاء إلى عقولهم، ونور اليقين إلى بصائرهم وأفئدتهم⁽¹⁾.

ما الذي دفع عثمان رضي الله عنه وهو في قمة قريش غنى ومكانة وأماناً ومحبة وجاهلاً إلى أن يتمرد على جاهليته؟

وما الذي دفع أبا بكر رضي الله عنه وعشرات غيره إلى أن ينفقوا من أموالهم الخاصة التي سهروا وكدحوا على جمعها وتنميتها لينفقوها حتى آخر درهم؟

(1) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1978م، ص 97-106.

وما الذي دفع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الغني المدلل إلى أن يرفض توسلات أمه وقد أوثقته رباطاً من أجل أن يرتد عن دينه، قائلاً لها: والله يا أم لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردني ذلك عن ديني؟

إن شعار (لا إله إلا الله) الذي أمر محمد ﷺ برفعه في وجه الجاهلية، جاء انقلاباً شاملاً، على كل المستويات الإيمانية والفكرية والنفسية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والسياسية.

أحكام القرآن تصوير لجوهر الإسلام:

يصف الوحي نفسه بأنه رسالة تبين الدين والقيم، وقد عرض الوحي فكرته الأساس أو جوهره، أي التوحيد، على أنه شهادة الله بأن لا إله إلا هو.. أما بخصوص البشر فإن الإسلام يرى نفسه دين الفطرة أو الديانة الطبيعية التي فطر الله الناس عليها لما وهبهم من القدرات العقلية التي يميزون بها قوانينه أو أنساقه في جميع ميادين الحياة والعمل.

مع أن القرآن الكريم هو في الحقيقة تصوير فكري لجوهر الإسلام، الذي وضع في عبارة عربية نفيسة، فليس كل كلمة في نصه تعود إلى ذلك الجوهر بنفس الدرجة أو على نفس المستوى من الأفضلية، فاختلاف الأهمية بين عناصره المكونة لصوره الفكرية يعود بشكل جزئي إلى شموليته: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38).

وإذا كان الكتاب يشمل كل شيء فيجب أن يرتب تلك الأشياء بشكل مختلف؛ لأنها بطبيعتها لا تنتمي إلى المرتبة نفسها، ثم إن القرآن الكريم يحتوي على أسس الدين والأخلاق، إضافة إلى تشريعات تعالج الحياة اليومية، وبعض هذه التشريعات لها مكان في القرآن بسبب الأهمية البالغة لمحتواها في الخطة الإلهية الشاملة، وهذه التشريعات القرآنية التي تخص الزواج والطلاق والإعالة والميراث، وهذه التشريعات

التي تهتم بالعائلة، وهي مؤسسة يعاملها الإسلام بجديّة كما لو كانت تتصل بجوهر الحياة البشرية، وبما أن الحياة البشرية غير ممكنة من دون مؤسسة العائلة فإن التعليمات التي تحكم تكوينها ونموها وفعاليتها هي من ذلك الجوهر أيضاً، وهناك تشريعات قرآنية أخرى توضح التشريع الذي يسنه الإنسان بناءً على أسس يحددها القرآن، مثال ذلك، تلك التشريعات التي تتصل بتنظيم المجتمع ومن ذلك الجوهر يتحقق تنظيم المجتمع والنظام الاجتماعي والعلاقات البشرية بعدالة ومساواة بين الجميع، لكن الأشكال التي يتخذها النظام الاجتماعي يمكن أن تتغير، وهي تتغير فعلاً، والأحكام التي يصدرها القرآن بهذا الخصوص تعتمد على الأحوال، خلافاً لبعض المبادئ الأساسية مثل التوحيد والعدل والحرية الإنسانية والمسؤولية وغير ذلك من الأمور القطعية والشاملة⁽¹⁾.

جمال النص القرآني:

القرآن الكريم جميل دون شك، والواقع أنه أجمل نص أدبي عرفته اللغة العربية، وجماله ليس نتيجة الإيمان به، بل هو بعينه سبب الإيمان.. والحكم الجمالي له أن القرآن جميل بل جليل ليس تعبيراً عن الإيمان فقط، إنه حكم نقدي تم بلوغه بالتحليل الأدبي، لذا فإن جمال القرآن لا يعتقد به المسلمون وحدهم بل غير المسلمين كذلك من المتمرسين بالجماليات الأدبية في اللغة العربية.

والقرآن الكريم تنزيل من الله حقاً، يتعلق بخيط واحد هو جمال النص القرآني، كان مُحَمَّدٌ ﷺ يقول، ويدعمه القرآن في ذلك، بل يملي عليه أن يقول إن القرآن جميل إلى حد لا يمكن تقليده بل إنه يبلغ حد الإعجاز، لذلك فالقرآن ليس من كلام

(1) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، 1998، ص 172 - 174.

البشر وإنما هو كلام الله، وهذه الخصيصة في القرآن تسمى (الإعجاز).

وإذا كان شعراء مكة وأدباؤها قد فزعوا من نتيجة مثل هذه المنافسة فإن زعامة مكة لم تفزع فاستدعي الشعراء والأدباء من أنحاء بلاد العرب لينقذوا الموقف ووعدوا بأجزل العطايا لقاء ما يؤلفون، وقام أحدهم وهو الوليد بن المغيرة يصغي إلى القرآن يتلوه النبي ﷺ فأخذه الإعجاب به، فجاء إليه أبو جهل وهو من زعماء مكة ليدعم مقاومته ووعدته بثروات مكة فأصغى الوليد إلى التلاوة ثانية وهتف دون تردد: ليس فيكم من هو أعلم مني برجز الشعر وقصيده، والله ما هذا القرآن من صنع بشر ولا جن، إن له لخللاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمشرق أعلاه، منير أسفله، يفوق كل ما قيل أو عرف⁽¹⁾.

لقد بقي القرآن الكريم موضع إجلال عظيم واحترام وتقديس عند المسلمين لأنه كلام الله الحرفي، فحمله كل مسلم واقتناه وحفظه وتلا آياته، وفسر جملة وفهم معانيه، واجتهد على العمل بما جاء في هديه وتشريعه.

فرضية الدعوة إلى الله:

إن الدعوة في حق الجاحدين والمعاندين تعريف وبلاغ، وفي حق المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة بناء وتكوين، فإذا حاولنا مع الجاحدين والمعاندين البناء والتكوين بعد التعريف والبلاغ فقد تجاوزنا بالدعوة حدودها وعرضناها للعبث والضياع، وإذا وقفنا بها مع المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة عند حد التعريف والبلاغ، ولم نتخط ذلك إلى البناء والتكوين، فقد حجرنا واسعاً وعرضناها مع أولئك إلى الدمار والزوال⁽²⁾.

ولعل ذلك هو ما ينطق به قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ

(1) المرجع السابق، ص 166-169.

(2) السيد محمد نوح، من أساليب الدعوة إلى الله: الدعوة الفردية، جمعية الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، 1991م، ص7.

تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّمُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿الأعراف:164﴾، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ﴾ (المائدة:99)، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَاغُ﴾ (الشورى:48)، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:164).

والدعوة إلى الله تعالى مشروعة على سبيل الفرض والإيجاب لا يصح إهمالها أو التواني والتفريط فيها، وذلك للأوامر الواردة في هذا الشأن مباشرة أو غير مباشرة، صريحة أو ضمنية، فمن الأوامر المباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران:104)، وقوله ﷺ: «... لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»⁽¹⁾. وقوله: «... بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»⁽²⁾، فهذه جميعاً أوامر، والأمر إذا أطلق يفيد معنى الوجوب والإلزام ما لم تكن قرينة تصرف عن الوجوب إلى غيره، ولا قرينة هنا، ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:125)، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج:67).

وقد بلغ النبي ﷺ في حياته بكل الأساليب والوسائل التي أتاحت له من الكلمة شفاهاً ومكتوبة، مباشرة أو بواسطة رسله، وكذلك بالسلوك التطبيقي، إذ هو الأسوة والقُدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وبلغ الدعوة أصحابه من بعده، وتتابع المسلمون في تبليغ الدعوة الإسلامية، فيجب أن يبقى الأمر على هذا

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه البخاري.

النحو ما بقيت الحياة لا سيما ما يأتي زمان إلا وما بعده شر منه، والشر لا يواجه بالسكوت وإلا لتحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: 251).

2- التجربة الحضارية التاريخية للإسلام:

عرب الجزيرة حملة الفكر الإسلامي:

الحالة الجديدة التي دخل فيها العرب في الحياة الإسلامية أعطتهم التصور الواسع والدقيق عن الكون والحياة والإنسان، وأمدتهم بالحضور في مواقع الأحداث ليكونوا هم صانعيها، إن هذه الحالة هي الفكر العربي الإسلامي، وهي حالة لم تأت نتيجة تطور اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو فلسفي أو عسكري، وإنما جاءت عطاء من عند الله تعالى على غير موعد، منحة غير متوقعة ونعمة كبيرة لهذه البشرية التائهة.. لقد كان دور الإنسان في هذا الفكر دور التلقي والأخذ، ثم الوعي والفقهاء، ثم العطاء والبذل، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٦﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ قُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٨﴾﴾ (القيامة: 16-19)، فلقد تكفل الله بإقراءه الفرد وإن كان أمياً، وتكفل بحفظه في الصدور، وتكفل ببيانه.

وقد نتساءل: من هم أولئك الذين حملوا هذا الفكر واستجابوا له، وكانوا أول المستجيبين له؟ ما أصولهم؟ وما مكوناتهم؟ وما درجة استعدادهم؟ وكيف كان حالهم عشية نزول القرآن عليهم؟.

إنهم قوم لم تكن لهم دولة ولا حضارة، وكانوا يعيشون على أطلال ذكريات تربطهم بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهم نسب وصهر لهذين النبيين الكريمين،

(1) السيد محمد نوح، مرجع سابق، ص 13-14.

جمعوا في أنفسهم وفطرتهم بين نقاء الأصل وكرم المعدن وعظمة الاستعداد من جهة، وبين ضياع الهدف وجاهلية السلوك والاعتقاد والتشريع من جهة أخرى، وكانوا يتحركون بين هذين النقيضين، فتارة يشهد لهم كرم الأصل ونقاء الفطرة، وطوراً يقعون في حمأة الجاهلية وأرجاسها إلى أن جاء الإسلام، فخلصهم من أرجاس الجاهلية، وكشف عن استعداداتهم الكامنة ومعادتهم الكريمة.

إن العرب لم يصابوا بعيوب الحضارة بل كانوا في جزيرتهم كالأرض البكر التي لم يجر عليها المحراث، ولم تزرع، حتى جاء أوان الحرث والزرع فكان الزارع نبياً رسولاً، علمه ربه تبارك وتعالى كيف يحرث وكيف يزرع: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: 29).

لقد التقى الإسلام بعقيدته الواضحة وشريعته الكاملة مع العرب، الذين لم يخوضوا تجارب حضارية معقدة قبل ذلك، فكان اللقاء لقاءً فجر طاقات تلك الأمة الوليدة الجديدة.

صفات تأهيلية:

على الرغم مما كان عليه العرب من فساد في التصور وبعض الخلق إلا أنهم كانوا يمتازون من بين سائر الأمم بصفات تؤهلهم لحمل هذه الرسالة العظيمة، فقد كانوا مشهورين بالصدق، وكانوا مشهورين بنصرة الجار وإغاثة اللهفان، وبلغ من نصرتهم للجار أن وقعت فيهم حرب البسوس.

كما تميز العرب قبل الإسلام بخلق يعتبر بمثابة القيم المعنوية التي يجاهدون لتحقيقها، فمكارم الأخلاق والمروءة هي مناسبات المدح والذم، والفخر والهجاء، فالعربي لم يكن مادياً متهاكاً على اللذة، ولا أنانياً شهوانياً، وهو على قلة القوت في أرضه وشح الطبيعة فيها لا يبيع شرفه ليأكل، وليس الطعام والشراب غاية حياته، حتى أنه يفضل الجوع مع العزة على الشبع مع الذلة وتحمل المنة، قال عنتره:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزل

لقد كان العربي قبل الإسلام يتجه نحو المثل العليا، ولا شك أن هذه المثالية في النزعة والاتجاه والدافع كانت تظهر في الوفاء والنجدة والإباء والشمم والكرم وحسن الجوار وغيرها من المكارم، وإن كانت كثيراً ما تضل طريقها حتى تذهب إلى إتلاف المال باسم الكرم، وإزهاق الروح وقتل الولد خوفاً من العار وحفظاً للشرف.

وهكذا انتقل عرب الجزيرة في فترة قصيرة من الزمن إلى أمة موحدة منسجمة، استبدلت بالتوزع إلى مجموعات قبلية وحدة مشتركة في العقيدة وفلسفة الحياة والسلوك، وبأفق القبيلة الضيق صعيد الإنسانية الرحب، وبدوافع الكسب والشرف بمفهومه القبلي دوافع وغايات بعيدة هي تحرير الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحقيق العدالة بين الناس جميعاً على أساس من الإيمان بالله، وجعلت فوق روابط الدم والقربان روابط الخضوع لله وحده، أي روابط الأخوة الإنسانية، وبدلاً من الغزو في سبيل العيش أو في سبيل كرامة القبيلة، أصبحت العرب تجاهد في سبيل الله، أي في سبيل الحق والخير وكرامة الإنسانية⁽¹⁾.

(1) إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 1998م، ص 10-31.

إن العالم اليوم منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد، لنموذج إنساني ولمبدأ ينشئ إنسانية سعيدة، ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة شاملة لنواحي الحياة، وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع ببعثها والتبشير بها، فهذه الأمة قد اختيرت منذ الأزل، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام، والتي حدد الله مسؤوليتها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَذَكَرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ (الزخرف:44)، وبقوله: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

الإسلام منهج للحياة:

المجتمع المسلم ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية، وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له، بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقيدة، وتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه - وهو أفراد أو مجموعات - أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً، وهو ما حدث في

تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ بغير استثناء.

فما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أياً كان؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعم فيها ولا يتردد لحظة، إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة، إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم ولا تؤدي إلا أن يكون هذا هو الأصل، وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعم ولا تردد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:7)، ثم إن الإسلام يسأل: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ (البقرة:140)، ويجيب: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور:19)، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:85).

ودين الله ليس غامضاً، ومنهجه للحياة ليس مائعاً، فهو محدد بالشطر الثاني للشهادة: محمد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص في الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص، وإن لم يكن هناك نص، فهنا يجيء دور الاجتهاد وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لا وفق الأهواء والرغبات: ﴿فَإِنْ نُنزِعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء:59).

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه الله سبحانه قوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتسق بها حركته الكلية سواء: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:40)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾

(الفرقان:2)، إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره، وقدراً يحركه،
وناموساً ينسقه⁽¹⁾.

العقيدة رابطة التجمع:

المجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع
الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض،
والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض، في أمة
واحدة، ربها الله، وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أعداد
يلتقون على أمر شرعه الله لهم، ولم يشرعه أحد من العباد، إنسانية الإنسان هي القيمة
العليا في المجتمع، والخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي،
ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة، العبودية لله
وحده، والتجمع على أصرة العقيدة فيه، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة
القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته، وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض
على عهد الله وشرطه وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة⁽²⁾.

إن صور الحضارة الإسلامية التي تقوم على تلك الأسس الثابتة لها مرونة التأثر
بدرجة التقدم العلمي والتكنولوجي في كل بيئة ومجتمع، ومن ثم لا بد أن تختلف صورها
لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمجتمعات والمستويات والتكيف معها بالقيم
والمقومات وفق الإطار والمنهج الإسلامي للحياة.

(1) سعيد حوى، الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1969، ج1، ص36-42.

(2) المرجع السابق، ص49-57.

مظاهر الحضارة الإسلامية :

الحضارة الإسلامية هي مجموعة القيم والاتجاهات المستمدة من الوحي الإلهي، التي تحكم النشاط المعنوي والمادي في المجتمع الإسلامي.. ومظاهر النشاط تبرز في الآتي:

1- المظهر العلمي: العلم عند الأمم إنما يكون لغايات معيشية دنيوية، وأما في الإسلام فأهميته تنبع من أنه السبيل إلى معرفة الله تعالى وحسن عبادته، وبه تصلح الدنيا والآخرة .

2- مظهر الحفاظ على المنجزات الإنسانية: تعاملت هذه الحضارة مع منجزات الأمم الأخرى والحضارات السالفة من خلال أن الحضارة الإسلامية لم تبدأ من الصفر بل سبقتها حضارات، وأن الحكمة ضالة المؤمن، وأن التراث الإنساني هو ملك للبشرية جمعاء.

3- مظهر الحفاظ على البيئة: البيئة الطبيعية تتكون من الماء والهواء والتربة والمعادن ومصادر الطاقة والنباتات والحيوانات، وجميعاً تمثل الموارد التي أتاحتها الله للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته.

4- مظهر حقوق الإنسان: جاء الإسلام لينقذ الإنسانية من قيود الطبقة والتمييز العنصري، وقد جاء هذا الإعلان في الصيغة الربانية، حيث قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:13).

5- مظهر الإدارة والسياسة: في الإسلام تنظيم لشؤون الناس في المجتمع المسلم ورعاية أمرهم وفق شريعة الله تعالى والسياسة كذلك، وقد عرفت السياسة الشرعية بأنها حراسة الدنيا بالدين.

6- المظهر الجهادي: الجهاد هو بذل أقصى الجهد لتحقيق غاية معينة،

والقتال نوع من أنواعه، والكلمة نوع من أنواعه كذلك، واللىهاد يكون
للعوة الناس إلى الإسلام، ونصرة المظلومىن والمستهضعفىن، وإرهاب العدو
المتربص بالأمة.

ثانياً: الإمكان الثقافي والاجتماعي

1- عالمية الرسالة وإنسانيتها:

الغرض السامي للرسالة:

لقد ظهرت أمة حضارية في جزيرة العرب، ووجد نوع جديد من البشر في هذه البقعة من الأرض، وهنا ينشأ تساؤل:

أي داع إلى ظهور أمة جديدة، والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة، وما شغل هذه الأمة الحديثة؟ وما مهمتها في العالم؟

إذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للزراعة وعمارة الأرض، فقد كان في فلاحِي الطائف وأكاري مدينة يثرب وزراع وادي الفرات والنيل وربوع الجانج غنى عن أمة زراعية جديدة، فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبناً وعسلاً، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشغلوا بالزراعة فقط، فلماذا لم يبعثوا في العراق وفي مصر والهند وهي بلاد خصبة وزراعية، ولماذا كان مبعثهم في واد غير زرع؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للتجارة، فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشام وفي أقباط مصر وتجار الهند كفاية، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم، وإذا كانوا قد بعثوا ليشغلوا بالتجارة حقاً فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية وبقرب من أسواق التجارة الكبرى؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للصناعة وأعمال اليد، فقد كان في مراكز البلاد المتمدنة وأصحاب الصنائع والحرف غنى وكفاية!

ما هو الجواب؟ إذا كان الجواب في الإثبات، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة إلى

الأمم كانت هذه الأمة حقاً من فضول الأمم، ومن المتطفلين على مائدة العالم. لقد كان مبعثها لغرض سام جداً، لمهمة غريبة طال عهد الإنسانية بها، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتهها، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110)، فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت في الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية، بل إنها أمة أخرجت ولأمر ما أخرجت.. وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم بل إنها أخرجت للناس، وذلك ما تمتاز به الأمة في التاريخ، فما من أمة إلا وهي وليد أغراضها ورهين بطنها وشهواتها تعيش لأجلها وتموت في سبيلها، أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتجاهد في سبيل الله.

بهذه الرسالة انبث عرب الجزيرة في العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة ومختلف الألوان والأجناس، وفي سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله إلى الأمم وحاملو راية الإسلام في العالم.

إن عرب الجزيرة قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى، ومراكزها الكبرى يقولون: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد خلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض، والأمة الهندية من عبادة البقر، لقد أخرجوا تلك الأمم إلى عبادة الله وحده، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية

الثانية يهتفون: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ونعيم الروح وطمأنينة القلب، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام⁽¹⁾.

فهل يسمع أبناء الجزيرة العربية - التي أشرفت منها شمس الإسلام - مرة أخرى صراخ الإنسانية وعويلها وأنين الثكالى والمستضعفين في الأرض، فيهبوا من نومهم العميق وسباتهم الطويل حالياً، لينشروا الهدى ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور؟

حقائق إنسانية في الرسالة:

يؤمن المسلم بأنه مكلف بدعوة الناس كافة إلى الإسلام، وأن هدف حياته يتمثل في هداية البشرية جمعاء إلى حياة يكون فيها الإسلام دين الله بما فيه من علوم الدين والشريعة والأخلاق والفرائض، هو دين البشر جميعهم، وقد جاء هذا التكليف للمسلم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).

2- الطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين:

اختيار إبراهيم عليه السلام مكان البيت:

نتساءل: لماذا اختار إبراهيم هذه البقعة النائية الجرداء ليترك فيها طفله وأمه؟ ألم يكن هناك موضع آخر يليق بهما؟ لقد كانت الأماكن الخصبة الأهلة بالسكان مستعدة لاستقبال هذه الأسرة

(1) أبو الحسن على الحسيني الندوي، إلى الإسلام من جديد، دار القلم، دمشق، 1988م، ص 8-22.

الصغيرة، ومقتضى التفكير العادي المستقل يقضي أن يتجه إبراهيم بفلذة كبده إلى المكان الخصب المؤمن حتى يطمئن عليه، فما الذي دفعه إذن إلى هذا المكان المقفر؟ لا نستطيع أن نقول: إنها محض المصادفة، ولا نقول إنها نتيجة تفكير في اختيار المكان المناسب، فلم يبق إذن إلا أن يكون توجيه الله المحض، خضع له إبراهيم ونفذه، وكان إبراهيم أمة قانتاً يخضع لتوجيهه ولو كان ذلك في ذبح ولده، وإنما لنجد تصديق هذا فيما رواه البخاري قال: بعد أن روى تعلق هاجر بإبراهيم عند تركه لها بمكة، وقولها له: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس؟ قالت ذلك مراراً، وهو لا يلتفت، فقالت أخيراً له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم! فقالت: إذن لا يضيعنا.

ونتساءل: هل هذا المكان (مكان البيت) كان معروفاً ومقدساً لدى إبراهيم عليه السلام؟ يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: 37)، يتضح من قول إبراهيم: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أن إبراهيم كان يعرف أن هناك مكاناً مقدساً سماه بيت الله الحرام، وجعل الغرض من الحج إليه والفائدة من إسكان أسرته بجواره أنهم يقيمون الصلاة ويعبدون الله، فلا بد إذن أن تقديس هذه البقعة كان معروفاً على الأقل عند إبراهيم، وأن تقديسها سابق على عهده⁽¹⁾.

وهكذا وضع إبراهيم عليه السلام نواة الحج إلى هذا البيت الكريم هو وابنه

(1) عبد المنعم النمر، بين يدي الحج والعمرة، رسالة الحج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1969م، ص 6-

إسماعيل عليهما السلام، وتابع العرب من بعدهما الحج إلى بيت الله، لم ينقطعوا عنه في أي عهد بل بقي مكان حجهم وموضع تقديسهم برغم الخلط الذي طرأ على عبادتهم حين أشركوا بالله واتجهوا إلى الأصنام، ثم جاء الإسلام الحنيف فأحيا لهذه البقعة المحرمة روحها، وأعاد إليها شعائرها ومناسكها السليمة، ومكانتها وقدسيتها لدى المسلمين، وفرض عليهم حجها لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الجزيرة العربية مركز الإسلام الأول:

الحج رمز ارتباط هذه الأمة الإسلامية بأبيها إبراهيم عليه السلام، حيث يحيي المسلمون شعائره ويطوفون بالبيت الذي بناه.

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدتهم ودينهم وشريعتهم.

والحج مظهر عملي لكثير من قواعد الإسلام، فهو مظهر عملي للأخوة الإسلامية، ومظهر عملي للمساواة بين الشعوب الإسلامية، ومظهر عملي للجهد والصبر والعبادة واللطف مع المؤمنين، وإلجام النزوات، والبعد عن القسوة، والتعود على الإنفاق في سبيل الله، وتعظيم شعائر الله⁽¹⁾.

كما أن الحج عودة بالمسلمين إلى حواضر الإسلام الأولى بالجزيرة العربية حيث شعائر إبراهيم ومحمد عليهما السلام، فتقوى في المسلم رابطته بهذه الحواضر على أنها وطنه الروحي وقبلته الوحيدة ووجهته العبادية ومنطلق تطلعاته وآماله المرجوة والمستجابة، فيرجع

(1) سعيد حوى، مرجع سابق، ص176-178.

منه وقد تغير كثير من معالم وصورة الحياة لديه، فبعد أن كان ارتباطه بهذه الحواضر نظرياً، أصبح الارتباط حقيقة وواقعاً وحساً وعملاً.

فيخرج المسلم من هذه الرحلة وكأنه ولد من جديد: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ
وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»⁽¹⁾.

الحج مؤتمر عام للمسلمين:

الحج أوسع وأروع مؤتمر اجتماعي وسياسي عرفه العالم، ففيه يجتمع مئات الألوف بل الملايين من البشر القادمين من قرى ومدن لا تحصى يمثلون أوسع تنوع ممكن من الأعراق واللغات والثقافات والعادات والآراء التي تتفاعل مع بعضها بعضاً، وحين ينوي الحجاج بالحج فإنهم يتخلصون من تلك الحياة اللاهية التي ألهتهم عن التزاماتهم وتمسكهم بتعاليم الإسلام، التزاماتهم الخالصة لله تعالى وحسن عبادته، ولا عجب أن الحج كان له مثل هذا الدور الكبير على الدوام، فهو وسيلة تربية وإعلام وتوصيل وتوفيق بين الملايين على أوسع نطاق.

والحج فرصة اجتماع عام لعدد كبير من المسلمين على مختلف المستويات في جو من الروحانية الخالصة، فلو اجتمعت قوى الأرض على أن توفر مثله ما استطاعت، وهو اجتماع سنوي تتغير فيه الأشخاص والأجناس ويصل تعدادها إلى مئات الألوف كل عام. كما أنه في هذا الجو الروحاني يمكن لقادة المسلمين ومسؤوليهم وعلمائهم أن يضعوا خططاً ومشروعات لتوجيه المسلمين التوجيه النافع لهم إيمانياً وروحانياً وإعلامياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

3- عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة العربية:

(1) رواه السنة إلا أبو داود.

التجانس البشري بين أبناء الخليج والجزيرة العربية ناتج من التشابه في النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد، أما الاختلاف في نمط العيش فإنه ناتج من اختلاف البيئة الجغرافية وتضاريسها ومناخها الذي طبع سكانها بطابعها وقدرتهم على التكيف والتعايش معها.

وسوف نجد أن القبائل والتجمعات البشرية التي عاشت على السواحل البحرية من الخليج العربي والجزيرة قد تكيفت مع محيط البحر ومستلزماته المعاشية.

والأقوام التي عاشت في المناطق الصحراوية والجبلية من الخليج والجزيرة العربية قد عاشت عيشة متنقلة مترحلة تبحث عن قوت الحياة والتكيف مع قسوة الصحراء ووعورة الجبال بحثاً عن الماء والكأ ورعي الغنم والإبل، سواء أكانوا بدو الصحراء أم سكان الجبال.

أما الأقوام التي عاشت في الوديان والسواحل الموجودة في أسفل الجبال فإنها اكتسبت معيشتها من الزراعة في السهل وصيد السمك في البحر وهي أكثر استقراراً من الأقوام التي تعيش في الصحراء والبادية.

فهناك تنوع في نمط المعيشة وليس في العرق والقومية والدين، بل جميع أبناء الخليج العربي بقبائلهم وتجمعاتهم تدين بالدين الإسلامي الحنيف، وتتكلم اللغة العربية بلهجاتها المحلية، ولها عاداتها وأعرافها المتجانسة في علاقاتها الاجتماعية وتكوينها الأسري والعشائري ومصاهراتها وأكلها وشربها وثقافتها وآدابها وقضائها لأوقات فراغها.

وعند ظهور النفط حصل تجانس أكبر واندماج أكثر وتكامل في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتعايش مع طبيعة الحياة الحديثة، فتبدلت المهنة وزاد الدخل وارتفع مستوى المعيشة لدى أبناء الخليج، وتحولت كثير من الأعمال التقليدية إلى أعمال ومهن ووظائف متحضرة ذات اتصال ثقافي وتكنولوجي وتجاري متصل

بالعالم الخارجي من خلال الشركات والمصانع والتنظيمات والمؤسسات العالمية المختلفة.
تلك هي أهم العوامل التي كان لها أدوارها المتميزة في التجانس والتشكيل المشترك
بين أبناء الخليج والجزيرة العربية والتي تؤهلهم فعلاً للدور الرسالي وانبعاث الأمة العربية
والإسلامية من جديد.

وبناء على هذا.. سوف نعرض بالتفصيل لبعض عوامل التجانس بين أبناء المنطقة
والتي تتمثل في: العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، ولغة ولهجات أبناء الخليج والجزيرة
العربية، والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد، وسكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم
الأسرية والقبلية، والظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

العامل الأول: العقيدة والقرآن:

دور العقيدة في تفجير طاقات أبناء الخليج والجزيرة العربية:

لعبت العقيدة الإسلامية دوراً مهماً في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية، بل نجدها
تصوغ المجتمع صياغة جديدة، وتؤدي إلى تغيير كثير من مفاهيمه وطباعه ومثله وقيمه
واتجاهاته وعاداته بل وتطلعاته، فإذا بأبناء الجزيرة العربية تتفجر طاقاتهم التي كانت
الصحراء المحرقة تمتصها، وتتوجه نحو هدف عظيم وغاية نبيلة.

انطلقت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بها تخترق الحدود المقفلة في
وجهها، وتحطم الحواجز التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم، وقبل أن تصحو هذه
الدول من هول المفاجأة، إذا بالرايات التي تعودت ألا تنتكس أبداً تهوي صريعة مخضبة
بالدماء تحت أقدام أولئك الذين حملوا لواء الإسلام شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى

والأنهار، يعرضون مبادئهم التي دفعتهم إلى هذا الانطلاق⁽¹⁾.

لقد كان المؤثر الأول لهذه الأمة هو القرآن الكريم، النور والهدى الذي كان الرسول الأمين ﷺ يتلوه عليهم صباح ومساءً، ويفتح عيونهم وأذانهم وقلوبهم على ما لم يسمعوا به من قبل من عقيدة تتلاءم مع طبيعة الفطرة، يقودهم القرآن إليها بالحجة والبرهان والنظر والوجدان، فتطمئن نفوسهم وتدفعهم إلى الإيمان برسالة الإسلام وتزيدهم يقيناً بحمل رايتهما إلى البشرية وتبشرهم بإحدى الحسينيين، إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله ونيل الجنة.

فالعرب في الخليج والجزيرة، بعد مجيء الإسلام، أصبحت لهم عقيدة واضحة ثابتة في التوحيد، حررت ضمائرهم ونظفت أسس تفكيرهم من كل ما لحق بالبشرية من أوزار الشرك والتعدد والانحراف، فليس هناك أمة في الدنيا من أهل الأديان السماوية كانوا أم من أهل الأفكار الأرضية ممن يؤمنون بوجود إله خالق يعتقدون بالتوحيد المطلق النزيه، ويثبتون لله جميع صفات الكمال دون تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل كأمتنا الإسلامية المجيدة⁽²⁾.

دور العقيدة الإسلامية في تجانس أبناء الخليج والجزيرة العربية:

تعتبر العقيدة الإسلامية الأساس الأول لبناء المجتمع، وعلى هذا الأساس ربي رسول الله ﷺ أصحابه، فأوجد المجتمع الفاضل في المدينة المنورة ومكة المكرمة وجزيرة العرب، فتكونت الأمة الإسلامية التي دانت لها الدنيا من مشرقها إلى مغربها. وسر توحيد العقيدة للمجتمع أنها تقوم على التوحيد المطلق لله في كل شيء، فالرب واحد، والرسول واحد، والرسالة واحدة، والقبلة واحدة، واللغة واحدة،

(1) أحمد على الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1996م، ص 47 - 48.
(2) محسن عبد الحميد، حركة التغيير الاجتماعي في القرآن، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت، ص 129.

والأهداف واحدة ، والآمال واحدة، فلا بد معها أن تكون الأمة واحدة، قال تعالى:
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:92).
وقد أدت عقيدة التوحيد إلى تجانس أفكار أبناء الخليج والجزيرة العربية واتحاد
مشاعرهم وبناء وحدتهم وتماسكهم بل وشعورهم بالمصير المشترك، مما زادهم ترابطاً
وتكاملاً خاصة في الآونة الأخيرة من هذا العصر الموصوف بعصر التكتلات بين
أصحاب المصالح المشتركة.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تبني مجتمعاً عالمياً، فكيف بهذه البقعة من أرض
الجزيرة العربية، مهد الإسلام ومنبع هذه العقيدة التي ليست مقصورة على أرض
أو فئة من البشر، فهي في رسالتها لا يحدها زمان ولا مكان؟

العامل الثاني: اللغة واللهجات:

بين عربية جنوب الجزيرة وشمالها:

اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم منذ أن حلها
قحطان رأس قبائل اليمن، ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لأصلاتهم في العربية، ومن
قبائل اليمن قبيلة (جرهم) التي سارت إلى مكة قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما
السلام، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم، وكثر بنوه بمكة، وأخذ إسماعيل لغة
العرب عن جرهم الذين عاشهم، وإسماعيل وذريته يسمون في التاريخ بالعرب المستعربة،
بسبب دخولهم في الأقاليم العربية بالمصاهرة التي ليس أصلهم منها⁽¹⁾.

واللغة العربية الجنوبية بلهجاتها المتعددة قديماً تختلف عن اللغة العربية الشمالية -
التي هي المقصود بالعربية الفصحى - اختلافاً جوهرياً أساسياً في القواعد النحوية،
والمظاهر الصوتية، والدلالات المعنوية، فمثلاً ورد في النقش السبئي العبارة التالية: «بمقم

(1) محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، دار الفكر، د.ت، ج1، ص44-45.

مراهيمو عشر شر قرن واشمشهو والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس»، ومعناها «بمجد سيدتهم عشروت المشرقة وأهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش)»⁽¹⁾.

إن لهجة قريش ذات الأصل العربي الشمالي التي لعبت مختلف العوامل: السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية في إبرازها وتبوتها المكانة العالية واعتبارها اللغة العربية الفصحى باعتراف جميع القبائل العربية، والذي اتضح من خلال إنشادهم للأشعار وإبرازهم للخطب في نواديهم وأسواقهم الأدبية المعروفة، كانت أيضاً أغزرها مادة وأرقها أسلوباً وأغناها ثروة لفظية وأقدرها على التعبير البلاغي الجميل في أفانين الأقوال والآداب المختلفة، لذلك ارتفعت في الفصاحة والمنزلة عن غيرها من لهجات القبائل العربية في ذلك الوقت.

اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية:

اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي، التي يستعملها مليار مسلم أو يزيد في جميع أنحاء العالم، يتلون بها صلواتهم اليومية وكتابهم المقدس (القرآن الكريم)، وهي كذلك لغة القانون الإسلامي الذي يهيمن على حياة المسلمين كافة على الأقل في مجال الأحوال الشخصية، فهي لغة الحضارة الإسلامية التي تدرس في ألوف المدارس خارج العالم العربي، من أقصى بلاد غرب أفريقيا إلى أقصى بلاد جنوب شرق آسيا، بوصفها وسيلة التعلم أدباً وفكراً في ميادين التاريخ والأخلاق والشريعة وعلوم القرآن والحديث الشريف. هذه اللغة هي لغة أهل الجزيرة العربية وما اتصل بها من أراضي الهلال الخصيب طوال ألف عام قبل ظهور الإسلام.

(1) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986م، ص 52-67.

واللغة العربية تطورت واكتسبت عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والرومية والمصرية والسانسكريتية، لكنها استوعبت تلك الكلمات والمصطلحات فعربتها⁽¹⁾.

والإسلام محتواه عقيدة وعبادة وسلوك، واللغة إنما هي تعبير عن هذا المحتوى، فهي وسيلة لا غاية، لذلك أرسل كل نبي بلغة قومه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: 4)، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أن من آياته اختلاف الألسنة والألوان: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (الروم: 22)، فشيء عادي إذن تعدد اللغات، غير أن رسالة الإسلام كانت بلغة العرب، وأن العالم كله مكلف بهذه الرسالة التي يتوقف فهمها على تعلم اللغة العربية، إذن فلا بد للمسلمين من تعلم هذه اللغة، يقول الشافعي رحمه الله: «إن الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له».

والاهتمام باللغة العربية لا يعني هذا إثارة عصبية، بل إن تعلم اللغة العربية آت من فهم المسلمين للدين الإسلامي وعقيدته ومنهجه ونظمه وشرائعه، فدينونة المسلمين للإسلام يعني نطقهم باللسان العربي المرتبط بدينهم لا بقوميتهم أو تعصبهم بجنسهم⁽²⁾. من هنا نجد أن مختلف الشعوب والأقوام الذين كانوا يقطنون أنحاء من الجزيرة العربية وخاصة في منطقة الخليج (شرق الجزيرة) والذين كانوا يتكلمون بلغات أقوامهم، بدخولهم الإسلام انصهروا في لغته، وقد ذكر التاريخ الإسلامي أن دخول أهل شرق الجزيرة في الإسلام كان طواعية ورغبة، مما حدا بهم إلى حب الإسلام ولغته، فامتزجوا جميعاً في بوتقته

(1) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، مرجع سابق، ص 58-59.

(2) انظر: سعيد حوى، مرجع سابق، ص 114.

مشكلين شعباً واحداً متجانساً اجتماعياً وثقافياً، لغتهم الرسمية هي اللغة العربية الفصحى ولسانهم المحكي اليومي هو لهجاتها المحلية الدارجة.

سكان الخليج واللغة العربية:

في العصر الحالي اللغة العربية بمختلف لهجاتها هي اللغة الوطنية، واللغة العربية الفصحى هي اللغة الرسمية لسكان الخليج العربي وأرض الجزيرة، بجانب لغات أخرى مثل الإنجليزية، والهندية، والأوردو، والكورية، والفلبينية، والبشتو، والفارسية، والسماهلية، والملايية، كل هذه اللغات يتكلم بها أهلها الذين يفدون إلى الخليج والجزيرة من أجل العمل، وتعتبر اللغة الإنجليزية إحدى اللغات الشائعة بسبب استخدامها في التجارة والمصارف والاتصالات والشركات والعلاقات الدولية، كما أنها لغة وسيطة بين مختلف المجموعات الوافدة إلى الخليج للعمل.

وعموماً ما يمكن القول: إن هناك ثلاث لغات تعمل في الخليج العربي، بصفتها لغات ربط واتصال، هي: اللغة العربية الفصحى، اللغة الرسمية، ولهجاتها المحلية هي المحكية والرابطة بين شعب الخليج العربي؛ واللغة الإنجليزية بالرغم من عدم تطبيقها قانوناً إلا أنها الفارضة لنفسها بشكل واسع كلغة ربط واتصال في المعاملات للمؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات الدولية العاملة في الخليج؛ واللغة الهندية بلهجاتها المختلفة كالأوردو تعتبر لغة ربط بين الهنود والباكستانيين العاملين في دول الخليج العربي.

والناظر إلى طبيعة اللغات المستخدمة في دول الخليج العربي وأرض الجزيرة، يجد أن هناك تزامماً بينها في الاستخدام والربط والاتصال وتنافساً في المكانة والتنبؤ والأهمية، مما يدعو إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى، لأن تأخذ المكان اللائق بها في الاستعمال والاتصال والربط، وقد كان من غير الناطقين بالعربية ممن اعتنق الإسلام ينصرفون إلى تعلمها بكل ما يقدرون عليه من جهد، ولذلك تفوق الكثير منهم قديماً وحديثاً في إتقانها، وهكذا أبرزت كثيراً من الشعراء والأدباء والكتاب والباحثين في مختلف العلوم

الشرعية والعربية، فساهموا مساهمة كبيرة في تطوير الحياة في نواحيها المختلفة. وإذا كان أبناء الجزيرة العربية قد ساهموا قديماً في نشر لغتهم من واقع حرصهم على نشر الإسلام ودعوته في بقاع الأرض خارج الجزيرة، فعم بها النور والهدى، وإذا كانت هذه اللغة (لغة القرآن) قد وحدت طوائف الخليج وسكانه منذ فجر اعتناقهم الإسلام.. فإنه حري بأهل الخليج والجزيرة في هذا العصر أن يهتموا بها بتمسكهم بالإسلام وهدى القرآن، هذا الدافع هو الذي سيحملهم على حفظ اللغة العربية والاعتزاز والارتفاع بها على بقية اللغات التي تزاخمها، كما أن استعمالها في الحديث اليومي مع مختلف الأجناس والأقوام في مختلف المعاملات والاتصال والمناسبات وزيادة معرفتهم بمصطلحاتها ومفرداتها وصيغها وأساليبها البلاغية، يجعلهم يتذوقونها ويحسون بجمالها فيفخرون بها في مختلف الأماكن والمحافل.

العامل الثالث: التاريخ المشترك:

انتشار الإسلام في الخليج والجزيرة العربية:

الدعوة الإسلامية لم تخص - كما أسلفنا - أهل مكة وحدهم، فلم تكن دعوة قبلية، ولم تخص الحجاز وحده، فلم تكن دعوة إقليمية، ولو كانت كذلك لاكتفى رسول هذه الدعوة عليه الصلاة والسلام بعد أن اتخذ من المدينة المنورة قاعدة لدولته الناشئة.. كما لم تكن دعوية عربية، ولو كانت كذلك لاكتفى الرسول ﷺ بانتشار الإسلام في قلب الجزيرة العربية، وعلى أطرافها في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، لذلك فقد تجاوزت حدود الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، انسجماً مع أمية هذه الدعوة وعالمية هذه الرسالة؛ بأنها للناس أجمعين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف:158)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:28).

كما أن الرسول ﷺ عبر عن سياسته في تعميم نشر الدعوة الإسلامية بين العالمين من خلال الكتب والرسائل التي وجهها إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك وحكام العالم المعاصر آنذاك.

إن سرعة انتشار الإسلام في الخليج، في كل من منطقتي عمان والبحرين، كان مرجعه إلى الآتي:

1- ارتباطه بانتشار الإسلام في الحجاز في أعقاب صلح الحديبية، إذ أتاح ذلك للقيادة الإسلامية في المدينة المنورة التفرغ لمواجهة يهود خيبر في شمال الحجاز، وهذا الصلح وما ترتب عليه من فتح مكة وغزو الطائف وسيادة الإسلام لأول مرة على إقليم الحجاز منذ السنة الثامنة للهجرة، أتاح للرسول ﷺ أن يوجه الدعوة إلى قلب الجزيرة العربية وأطرافها بما في ذلك عمان والبحرين، وإن سلسلة الانتصارات التي حققها المسلمون كانت مصدر قوة للإسلام والمسلمين في كل بقعة من الجزيرة العربية.

2- ارتباطه بإرهاصات ظهور نبي جديد من قبل بعض سكان البحرين بحكم الاتصال الحضاري وملتقى كثير من الديانات كالتنصرانية واليهودية والمجوسية على سواحل الخليج، وما ترتب على ذلك من أن بعض السكان أصبح على استعداد نفسي لاستقبال دين جديد.

فانتشار الإسلام في عمان تم حين أوفد الرسول ﷺ عدداً من الرسل محملين برسائل إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، بعد فتح المسلمين لمكة في السنة الثامنة للهجرة، وقد أوفد الرسول ﷺ عمرو بن العاص السهمي وأبا زيد الأنصاري إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ومعهما كتاب يدعوهما به إلى الإسلام جاء فيه

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: من مُحَمَّد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن أسلمتما وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيلي تطئ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»⁽¹⁾.

أما انتشار الإسلام في البحرين فإنه لم يكن بنفس الشمول والدرجة التي حدث بها في عمان، وأول رسول أرسل إلى سكان البحرين لدعوتهم للإسلام هو العلاء بن عبد الله الحضرمي، حليف بني عبد شمس، سنة ثمان للهجرة، وقد حمل رسالة من الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوي التميمي وإلى سييخت مرزبان هجر يدعوها إلى الإسلام أو الجزية، وكان نص الرسالة الموجهة إلى المنذر بن ساوي «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: من مُحَمَّد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم، تسلم، أسلم يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر»⁽²⁾.

قانون الابتلاء للأمة:

لقد نعم أهل الخليج والجزيرة العربية بالعزة والقوة والوحدة تحت راية الإسلام الحنيف المتمثل في دولة الخلافة الإسلامية التي تعاقبت على حكم الأمة الإسلامية، ابتداءً من عهد الرسول ﷺ ثم عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ثم عهد الخلافة الأموية وتلاها عهد الخلافة العباسية، فكان الخليج العربي وبالذات سواحله وعمان الداخل بين الولاء الكامل لهاتين الخلافتين وبين محاولة الخروج عن هذا الولاء والحكم الذاتي، فكانت بين قرب وابتعاد، إلى أن جاءت الخلافة العثمانية، فأعادت القوة مرة أخرى إلى

(1) محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1988م، ص 57.

(2) المرجع السابق، ص 64.

العالم الإسلامي وبقي الخليج العربي ضمن هذه القوة.

إلا أن طبيعة الاستعباد الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، خاصة في فترات الضعف التي أصابت هذه الخلافة الأخيرة، الاستعباد للشعوب المسلمة من حكامها في مختلف الأجزاء من البلاد العربية والإسلامية ومنها منطقة الخليج العربي، مما مهد لاستعباد أشد هو استعباد المستعمرين الأوربيين الأجانب.

لقد عبر عن ذلك العلامة أبو الأعلى المودودي قائلاً: إن الاستعباد الذي ابتلينا به في القرن الماضي إنما كان نتيجة محتومة لانحطاطنا الديني والخلقي والفكري الذي كنا متردين فيه من قرون عديدة، إذ كان قد بلغ بنا الأمر من الضعف والتقهقر والانحطاط، حيث لم يعد من الممكن أن يقر لنا قرار أو أن نثبت على أقدامنا بأنفسنا، ففي مثل هذا الوضع كان من المحتوم أن تحل بنا نازلة من النوازل، فهذا هي ذي قد نزلت في صورة الاستعمار الأوربي وفقاً لقانون الطبيعة⁽¹⁾، فهذا القانون مقدر من الله تعالى على عباده: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُلُوا وَنَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: 46)، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: 103).

سوء الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي ومنطقة الخليج:

شهدت منطقة الخليج والجزيرة العربية في مطلع القرن السادس عشر تطورات تاريخية بالغة الأهمية، حيث يعد قدوم البرتغاليين إلى الخليج بداية للعصر الحديث في المنطقة، فقد فتح البرتغاليون بقدمهم إلى المحيط الهندي الباب أمام الدول الأوروبية

(1) أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، 1985م، ص 131.

الأخرى التي أخذت منذ ذلك التاريخ في البحث عن موضع قدم لها في المناطق المطلة على سواحل هذا المحيط.

ومما زاد الأوضاع سوءاً تلك الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي آنذاك، فقد كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبرى تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على المشرق الإسلامي: المماليك في مصر، والصفويون في إيران، والعثمانيون في آسيا الصغرى.

أما على الساحة الخليجية فلم تكن الأوضاع السياسية بأفضل من غيرها من المناطق الإسلامية، ففي عمان كان النبهانيون يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وفي الخليج (البحرين) فإن إمارة بني جبر لم يكن بمقدورها فعل شيء تجاه هذه المتغيرات الإقليمية لعدم مواكبتها التطور الذي شهده ذلك العصر، أما مملكة هرمز في جنوب الخليج، والتي كانت أهم تلك القوى المحلية، فهي الأخرى انهارت قواها العسكرية بعد أن سيطر البرتغاليون على حركة الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، الركيزة التي كانت تعتمد عليها مملكة هرمز⁽¹⁾.

العامل الرابع: العادات والتقاليد

تجانس العادات بين المسلمين:

تتميز الأمة الإسلامية بتجانس وتقارب في العادات والتقاليد والسلوك والآداب، لأن كل مسلم له في الرسول ﷺ أسوة حسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: 21).

(1) مجموعة من أساتذة جامعة الإمارات العربية المتحدة، دراسات في مجتمع الإمارات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، 1997م، ص 38 - 39.

فالمسلمون جميعاً يأكلون على هيئة واحدة، وينامون على هيئة واحدة، وحتى دخولهم الحمامات فإن لهم أدباً واحداً فيها، وأدبهم في السلام والزيارة والعيادة والجلوس والعطس.. وغيرها من الآداب، فإن لهم فيها تجانساً وتشابهاً واحداً.. ونجد ذلك التجانس واضحاً في المجتمع الخليجي المسلم في مختلف عاداته وتقاليده وأنماط سلوكه.

ويدعو الإسلام إلى بناء المجتمع الفاضل، الذي تسود فيه القيم الأخلاقية التي تضبط سلوك الإنسان، وتبقيه في إطار إنسانيته، وتحول بينه وبين الوقوع أسيراً بين غرائزه وشهواته التي تؤدي إلى انحراف المجتمع.

لقد وضع الإسلام لذلك نظاماً أخلاقياً ينسجم مع الفطرة السليمة، ويعالج الانحرافات السلوكية التي تقع نتيجة لتغلب النزعة الحيوانية على النزعة الإنسانية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: 33).

ولم يقف الإسلام عند حدود المواعظ والتوجيهات والتحريم المجرد، بل وضع لذلك مخططاً تربوياً عملياً دقيقاً في سبيل الوصول إلى المجتمع الفاضل، يتلخص فيما يأتي:

- 1- الاعتراف الكامل بدور الغرائز في الحياة، والدعوة إلى صقلها وتهذيبها.
- 2- اللجوء إلى التربية في المؤسسات الاجتماعية، كالأسرة والمدرسة وجمعيات الرعاية المختلفة.
- 3- تهيئة الجو الملائم للقضاء على الأسباب التي تؤدي إلى الانحرافات، فكل ما أدى إلى الحرام فهو حرام.
- 4- شرع الإسلام نظاماً عقابياً يتعمق إلى جذور المشكلات.

التجانس الاجتماعي بين أهل الخليج العربي:

البناء الثقافي أقوى البنيان في صياغة المجتمع الخليجي، لأنه يحتوي على المقدرات البشرية والتنظيمية والفكرية التي تعمل على المحافظة على تماسك المجتمع وعدم انحرافه، من خلال التوجيهات والتعاليم ذات الأصول العربية التي هذبها الإسلام بمفاهيمه السماوية، برغم التطور الذي حدث في المجتمع الخليجي بسبب المورد الاقتصادي (النفط) الذي غير من طبيعة حياتهم نحو الحياة العصرية، ومحاولة تأثر بعضهم بالحياة الغربية، إلا أن العادات والتقاليد الخليجية والمعتقدات ظلت سائدة، كطراز الأزياء وطريقة العيش في المسكن والمأكل ومراسيم الزواج والولادة والروابط الأسرية والقروية والتنظيمات القبلية.

لقد حدثت بعض التغيرات في الحياة المادية والتقنية والعمرانية، بالذات في المدن والمراكز السكانية الكبيرة في المجتمع الخليجي، ووفد إليها العديد من الأجناس من المجتمعات غير العربية، وبعضهم من المجتمعات غير المسلمة الأوروبية والآسيوية، فأحدثت تأثيراً في اللغة واللهجة المحلية، وتغيراً في بعض أساليب التنشئة الأسرية عن طريق المربيات والخادمات في كثير من البيوت الخليجية، لكنه على الرغم من ذلك بقي بناء المجتمع الخليجي بناءً عربياً مسلماً في تركيبته وتعاملاته، محافظاً على مفاهيم وقيم وعادات الصحراء والبحر والقبيلة والأسرة الخليجية.

ويبرز التجانس الاجتماعي في التشابه الكبير في النظم الاجتماعية، وفي العادات والتقاليد والأعراف، فبالرغم من اختلاف أنماط المعيشة في المدن والقرى والبادية في الخليج العربي، إلا أن هنالك قاسماً مشتركاً أعظم في العادات والتقاليد والأعراف، وهذا لا ينفي أن أهل البادية هم أكثر تمسكاً ومحافظة على العادات والتقاليد العربية التي ترجع في أصولها القبلية الأولى إلى قلب الجزيرة العربية وجنوبها، ويظهر التشابه في الأهمية

التي يوليها أبناء المجتمع الخليجي للأسرة وللجماعة القرابية (القبيلة) بعامة.. كما يظهر التشابه في عادات وتقاليد المناسبات الاجتماعية المختلفة، كالزواج والميلاد والوفاة والاحتفال بالأعياد والأحداث والمناسبات الدينية والوطنية.

التكافل الاجتماعي في الخليج العربي:

نظام التكافل الاجتماعي في الخليج العربي مستمد من الأصول العربية القديمة ومن الدين الإسلامي الحنيف، خاصة وأن طبيعة سكان المنطقة يعيشون في إطار الأسرة والقبيلة التي من سماتها التكافل والنصرة، أما الدين الإسلامي فإن نصوصه تدعو إلى التكافل الاجتماعي والحث على التعاون والمساعدة والإنفاق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَلْضَدَّقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ فُلُوهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:60)، ويتضح هذا النظام التكافلي في: الزكاة، والنفقة، والصدقة، وإسعاف الجائع والمحتاج، ومساعدة الداخلين في الإسلام والغارمين، والفقراء، وبذل المال للمجاهدين في سبيل الله وطلبة العلم، والإيثار، والوصية والهدية، والإعارة، والرهن، والوقف، والضيافة.

وتسعى أغراض السياسة الاجتماعية في الدول الخليجية عامة إلى (1):

- 1- رفع المستوى المعيشي لأفراد المجتمع عن طريق تقديم الخدمات الصحية والتعليمية والخدمات التنموية.
 - 2- العمل على حل المشكلات الاجتماعية والصحية والاقتصادية عن طريق إشباع أكبر قدر من الحاجات.
- كما سعت دول الخليج العربي أن تقدم الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية

(1) معن خليل عمر، مجتمع الإمارات والمفاعيل العملاقة، دار الكتاب الجامعي، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2001م، ص 352.

لأبنائها عن طريق الآتي:

- 1- تقديم الخدمات الاجتماعية تلبية للحاجات الأساسية للمواطنين، مثل الرعاية الصحية، والاهتمام بالتعليم من خلال فتح المدارس الحكومية.
- 2- توسيع مفهوم الرعاية الاجتماعية من تقديم المساعدات العينية والمادية إلى الأخذ بالأساليب الوقائية والتنموية لدعم أفراد المجتمع.
- 3- وضع قوانين وتشريعات للتكافل والرعاية الاجتماعية تستند على التعاليم الإسلامية والأصول والعادات والتقاليد والأعراف العربية.
- 4- السعي إلى تقديم خدمات اجتماعية حديثة، وتقوية العلاقة بين المواطنين والدولة.
- 5- طبع أنشطة التكافل والرعاية الاجتماعية بطابع مؤسسي حكومي وشعبي عبر المؤسسات والوزارات والجمعيات المختلفة.
- 6- إفساح المجال للمنظمات الدولية في تقديم الرعاية الاجتماعية من خلال الدعم للمشروعات الاجتماعية.

العامل الخامس: الطبيعة الأسرية والقبلية

سكان الخليج والجزيرة العربية:

استقر العرب منذ القديم في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، وفي منطقة عمان والساحل الغربي للخليج العربي، ويذهب بعض العلماء والباحثين في أصل الأجناس والسلالات إلى أن العرب هم الأصل للعرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى، كما يرى بعضهم أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين، ومنها تعاقبت الهجرات إلى الهلال الخصيب منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تلاها هجرات

إلى بلاد الشام، حتى أن الجزيرة العربية شُبِّهت ببحر يرسل أمواجاً بشرية متتابعة، في حقب متعاقبة، أو بخزان زود الهلال الخصيب بالسكان.

ورغم أن نظام الحياة العربية كان قليلاً إلا أن ذلك لم يمنعهم من إنشاء أنظمة اجتماعية، وتأسيس ممالك وأسر حاكمة، ولا سيما في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، حيث قامت الدولة المعينية والسبئية والحمرية، حتى أن هذه الدول بسطت نفوذها في الشمال بما أنشأت من مراكز تجارية.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من أولى الأقوام التي نزحت إلى شواطئ الخليج حين طرأ الجفاف على أواسط شبه الجزيرة العربية الكنعانيين، ولعل ذلك كان في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد استطاب الكنعانيون الإقامة على بعض الينابيع في جزيرتي (تاروت) و(آراد) من جزر البحرين، ثم انتشروا على الساحل، ثم ما لبثوا أن رحلوا في وقت لاحق إلى سوريا، ومنهم تفرع الفينيقيون الذين امتدت أسفارهم إلى البحر الأحمر، فاحتكروا تجارته وتجارة بلاد العرب وسواحل الخليج العربي.

أصل عرب الجزيرة :

لقد صُنّف عرب الجزيرة إلى قسمين رئيسيين هما :

- العرب البائدة: وهي القبائل التي انقرضت ومنها: طسم وجديس وعاد وثمود.

- العرب الباقية: وهما قسمان:

- العرب القحطانية: وهم في الأصل من اليمن، ويطلق عليهم العرب العاربة، وقد

تشعبت قبائلهم وبطونهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فكان منه بطون حمير، وأشهرهم: زيد الجمهور، والسكاسك، ومنهم بطون كهلان، وأشهرهم همدان،

وأثمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد الذين منهم الأوس والخزرج،
وأولاد جفنة ملوك الشام⁽¹⁾.

- العرب العدنانية: وهم من عرب الحجاز وتهامة، ويطلق عليهم العرب المستعربة،
وقد تشعبت قبائلهم وبطونهم من عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل ابن إبراهيم
عليهما السلام، والذي جاء إلى مكة وساكن جرهم وصاهرهم، وقام ببناء البيت الحرام:
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، ولم تزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل حتى كان منه عدنان
وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطن هذا الشعب المعدية
والنزارية⁽²⁾.

ومن أولى القبائل العربية البائدة التي استوطنت منطقة الخليج هي طسم،
كما امتد سلطان جدیس حتى شمل الیمامة، ویجمع طسم وجدیس أصل واحد.
وأما العرب الباقية، فإن عرب الشمال العدنانية أول من سكنت بطونها البحرين،
وتعد قبيلة قضاة، وهي فرع من القبائل العدنانية، أول من نرح إلى هذه المنطقة في
أوائل القرن الأول للميلاد، وقد حدث في هذه الفترة هجرة بعض القبائل إلى هذه
المنطقة تنزعها قبيلة الأزد فانضموا إلى قضاة، ثم أصبح يطلق على القبيلتين اسم
تنوخ وهي مزيج من قضاة والأزد، ويبدو أيضاً أن مجيء إياد إلى البحرين تزامن مع
وجود الأزد فيها وقد استقروا في أوال جزيرة البحرين الحالية.
كما أن بطون عبد القيس من العرب العدنانية انتشرت في أكثر أجزاء البحرين، وقد

(1) محمد الخضري، مرجع سابق، ص 11.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

برز منها الشعراء والخطباء، فبرز منهم طرفة بن العبد صاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

لمية أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ومن القبائل التي سكنت منطقة الخليج بكر بن وائل التي استوطنت هذه المنطقة قبيل الإسلام.

وأما قبيلة بني تميم فتعد من أكبر القبائل العربية التي استوطنت هضبة نجد وامتدت سيادتها من الحجاز إلى الأطراف الشرقية للجزيرة العربية، وأصلها يعود إلى مضر وعدنان.

وتشير بعض الروايات إلى أن الأزد خرجت من اليمن بعد انهيار سد مأرب، ومن بطونهم التي توجهت نحو عمان: ربيعة وعمران بنو عمرو بن عددي بن حارثة ابن عمر بن عامر، ومن عمان انتشروا بالبحرين وهجر، أما روايات أخرى فتشير إلى أن الأزد أقاموا بتهامة، ثم وقعت الفرقة بينهم فصار كل فخذ منهم إلى بلد، فمنهم من قصد عمان، ومنهم من قصد اليمامة والبحرين⁽¹⁾.

هجرات أهالي الجزيرة العربية:

كان أهالي الصحراء العربية يهاجرون إلى الهلال الخصيب في الشمال منذ أقدم العصور، وكانوا يرحلون سيراً على الأقدام أو على ظهور الجمال والحمير في طريق يدور حول الأصقاع الشمالية من الجزيرة العربية، وكانت الأقسام الغربية من الجزيرة هي الأكثر ازدحاماً بالسكان، ومن تلك المنطقة كان طريق الهجرة يتجه بشكل طبيعي نحو الشمال قدماً باتجاه الأردن وسوريا، ثم ينحرف شرقاً إلى الذروة الشمالية من حذبة الجزيرة، وينحدر إلى الجهة الغربية من بلاد ما بين النهرين نزولاً إلى الخليج العربي.

(1) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص 33-40.

ولم تكن حركة السكان مقصورة على الهجرة من الصحراء إلى الهلال الخصيب في الشمال، فقد حدثت هجرة مشابهة في الاتجاه المعاكس⁽¹⁾.

وبعد الإسلام حدثت هجرات لأهالي الخليج والجزيرة العربية إلى بلدان مختلفة في العالم لنشر الإسلام، فقد هاجرت جماعات كبيرة وقبائل مختلفة من الخليج والجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة وما تلاها من البلدان، وساعدت هذه الهجرات على انتشار الإسلام في مختلف بلاد العالم حتى إندونيسيا والفليبين.

أما الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا فقد مرت بمراحل ثلاث هي⁽²⁾:

الأولى: رحلات من الخليج والجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا طلباً للتجارة.

الثانية: مرحلة الإقامة بالجزر الساحلية كمحطات في الطريق.

الثالثة: مرحلة إنشاء المدن الإسلامية على ساحل شرق أفريقيا.

وهناك طرق أخرى سلكها أهل الخليج والجزيرة العربية لنشر الإسلام في عموم

أفريقيا هي:

1- طريق برزخ السويس.

2- طريق الواحات عبر الصحراء حتى غربي القارة.

3- طريق القوافل من تونس وجنوب الجزائر والمغرب إلى شمال نيجيريا.

4- طريق بلاد اليمن وحضرموت إلى الصحراء الشرقية ووادي النيل.

الأسرة والقبيلة في الخليج والجزيرة العربية:

النظم الاجتماعية ظاهرة إنسانية عامة إلا أن طبيعتها وأهميتها وعلاقتها قد تختلف

(1) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، مرجع سابق، ص 43.

(2) عبدالرحمن حميدة وآخرون، الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي، الصف الثالث الثانوي، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، 1977م، ص 30.

من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر، ومن أهم النظم الاجتماعية التي عرفت في منطقة الخليج والجزيرة العربية النظام الأسري والقبلي: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾ (الحجرات: 13).

فتعد الأسرة والقبيلة عصب الحياة الاجتماعية والسياسية في مجتمع الخليج والجزيرة العربية.

وتتسم الأسرة والقبيلة بالتضامن الاجتماعي والترابط والتآزر والاحترام المتبادل. وتمثل الأسرة الوحدة الأساسية للنظام القبلي، ومجموعة الأسر تكون عشيرة أو فخذاً، ومجموعة العشائر (الفخوذ) تكون قبيلة، ومجموعة القبائل تكون حلفاً قبلياً كبيراً، ويزداد النظام القبلي صرامة وتمسكاً به أكثر في الصحراء والبادية من أرض الجزيرة العربية. لقد طرأت بعض التغيرات في النظام الأسري والقبلي في الوقت الحاضر في دول الخليج العربي، من ذلك:

- 1- قيام مؤسسات الدولة بالمشاركة في عملية التنشئة الاجتماعية، التي كانت في الماضي قائمة على الأسرة فقط.
- 2- الاعتماد في تنشئة الأطفال والعناية بهم على المربيات الأجنبية (الآسيويات) في كثير من بيوت الخليج العربي خاصة بيوت الموسرين منها، وكذلك بيوت فئات متوسطي الدخل فما فوق.
- 3- زواج بعض أبناء الأسرة الخليجية من أجنبيات، خاصة من الدول الآسيوية وبعض الدول الغربية أحياناً، فوردت عادات وطبائع غريبة عن المجتمع، أثرت على الأبناء في الأسرة.
- 4- انشغال الأب والأم بالعمل خارج المنزل أثر على رعاية الأبناء في الأسرة،

لعدم وجود الوقت الكافي لرعايتهم من قبل الوالدين.

5- بروز الاقتصاد والدخل عن طريق المؤسسات الحكومية والخاصة وانحسار وضعف الاقتصاد المهني الأسري.

6- اعتماد الأسرة على التكنولوجيا الحديثة في تجهيزات المنازل كالغسالة والثلاجة والفرن الآلي وغيرها من الآلات والأدوات الميكانيكية والإلكترونية، مما أدى إلى توفير الوقت والجهد الذي كان يبذله أفراد الأسرة خاصة الأم.

العامل السادس: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة:

حدود جزيرة العرب والخليج العربي:

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها (جزيرة العرب) مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء، كما قال يا قوت الحموي في معجم البلدان نقلاً عن هشام بن محمد السائب عن ابن عباس: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة والأيلة وامتد إلى عبادان، وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان وكاظمة إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين، وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار ساحل المدينة، ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ القلزم فمصر وخالط بلادها وأقبل على النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في

بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور ثم سواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق⁽¹⁾.

أما حدود إقليم الخليج العربي فإنه يشكل الذراع البحري المتفرع من بحر العرب الذي يطوق الجزيرة العربية من الجنوب والمكمل للمحيط الهندي، ويتكون من خليج خارجي وهو خليج عمان وخليج داخلي وهو الخليج العربي، بالإضافة إلى مضيق هرمز الذي يصل الخليجين أحدهما بالآخر، ويصل عرضه إلى 60 كيلومتراً، ويعتبر الخليج الغربي بجزراً ضحلاً لا يزيد متوسط عمقه عن 35 متراً، بينما يصل أقصى عمق له حوالي 100 متر بالقرب من مضيق هرمز، ويبلغ طول الخليج حوالي 1000 كيلو متر، بينما يتراوح عرضه بين 200 و 300 كيلو متر، ويغطي مساحة تصل إلى 226000 كيلو متر مربع⁽²⁾.

الخليج العربي في العصور الإسلامية:

اكتسب الخليج العربي أهمية خاصة منذ الفتوحات الإسلامية، إذ أصبح الطريق الوحيد للتجارة بين الشرق والغرب، وترتب على ذلك أن انتهى التنافس الذي كان قائماً بين الخليج العربي والبحر الأحمر، إذ أصبحا بحرين في دولة إسلامية واحدة يكمل أحدهما الآخر، وظل الأمر كذلك إلى أواسط الحكم الأموي حين تدهورت الحركة التجارية بسبب حركات المعارضة الانفصالية المذهبية، التي كانت تسعى للانفصال عن الدولة الأموية، وقد نتج عن ذلك ركود حركة القوافل التجارية المارة عبر الخليج مما

(1) محمد الخضري، مرجع سابق، ص 4-6.

(2) يحيى فرحان وآخرون، الجغرافية الإقليمية، الصف الثالث الثانوي الأدبي، وزارة التربية والتعليم وشؤون الشباب، سلطنة عمان، 1983م، ص 252.

اضطر على إثر ذلك أن يعتمد الأمويون على البحر الأبيض المتوسط.
وظل الأمر كذلك حتى قيام الدولة العباسية، فاستعاد الخليج العربي أهميته التجارية العالمية من جديد، فازدهرت موانئ الخليج بسبب كثرة تردد القوافل عبرها، وبسبب كبر حجم المبادلات التجارية بين الهند وبلاد فارس والبلاد العربية.
بيد أن منطقة الخليج ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى إلى فترة ركود كهمة وصل في حركة المبادلات التجارية على أثر الغزو المغولي للعالم الإسلامي.. ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما أصيبت حركة الملاحة والتجارة بشلل بسبب تعرض المنطقة للفوضى والصراعات المحلية فيها قرابة الثلاثة قرون، وبذلك ظل الخليج يمارس بعض النشاطات التجارية بشكل بطيء وعلى نطاق محدود حتى قيام الدول الاستعمارية في العصر الحديث بالتنافس على بسط نفوذها على مياه هذا الخليج.

أهمية موقع الخليج العربي:

البيئة الجغرافية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية توضح معالم تاريخ المنطقة وتحديد موقعها، والأقاليم التي تتألف منها، كما توضح أهميتها التاريخية والحضارية على اعتبار أنها معبراً بحرياً والجسر الذي يربط الشرق بالغرب، وانتقلت من خلاله حضارات العالم القديم.

إن نظرة عابرة إلى الإطار الخارجي لخريطة الجزيرة العربية تشير إلى أن مياه البحر الأحمر تحدها من الغرب ومياه بحر العرب تحدها من الجنوب، في حين أن مياه الخليج العربي تحتضنها من الشرق، وتتداخل شواطئ هذا الخليج مع البر تارة في حين يتداخل البر مع مياه هذا الخليج تارة أخرى، وكذلك فإن شواطئ هذا الخليج الشرقية تطل على بلاد فارس، وسواحلها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

ولأهمية هذا الموقع قديماً فإنه قامت على شواطئه المراكز العالمية للملاحة والتجارة،

حتى أنه نافس في كثير من الأحيان البحر الأبيض المتوسط من الناحية الاستراتيجية.. وإذا كان الخليج قد جذب الفاتحين قديماً بما تناثر في جنباته من اللؤلؤ والمرجان، فإن هذا الخليج يحرك اليوم شهوات الطامعين اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، بما تفجر من سواحل تربته من ذهب أسود (النفط) يعد عصب الحضارة وعماد حياة البشرية في عالم الاقتصاد والإنتاج والتجارة والآلات والمصانع والتكنولوجيا الحديثة.

وتدخل منطقة الخليج العربي في إطار استراتيجية الدول العظمى، حيث الشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا، وغرب المحيط الهندي، والبحر الأبيض المتوسط، كل ذلك يشكل مسرحاً واحداً للعمليات الحربية وكياناً سياسياً واحداً، فالدوائر العسكرية الأمريكية وجدت في شمال بحر العرب أحد أهم النقاط الاستراتيجية...⁽¹⁾.

ويشكل النقل البحري، خصوصاً نقل إمدادات النفط من الخليج العربي، أحد أهم المعطيات الاستراتيجية في المحيط الهندي، وإذا أخذنا في الاعتبار أن إنتاج النفط في الخليج العربي يراقب بأكثره من قبل الغرب، ندرك عندها أهمية نقل إمدادات نفط الخليج العربي وحرية تحرك ناقلات النفط عن طريق رأس الرجاء الصالح أو قناة السويس بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية واليابان، لكن الموضوع الرئيس بالنسبة إلى العالم الحر، يكمن في حماية حرية الطرقات البحرية، فالأخطار البحرية التي يمكن أن تتعرض لها حركة نقل النفط تأتي من الغواصات أو الألغام البحرية العائمة أو ألغام ترميها طائرات حربية من الجو، أي أنه من الضروري ألا تتعرق حركة النقل هذه من أي نزاع قد ينشب في الخليج العربي أو إمكانية سد

(1) انطوان متى، الخليج العربي من الاستعمار البريطاني حتى الثورة الإيرانية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1993م، ص20.

مضيق هرمز، أحد أضعف النقاط على طريق النفط الخارج من منطقة الخليج، إذ من الممكن أن تتعرض ناقلات النفط خلال سيرها إلى تدخلات وعمليات هجومية. إن ناقلات النفط التي تترك عمق الخليج تمر أولاً في عرض البحرين وقطر ثم بين إيران والإمارات العربية المتحدة لتخرج أخيراً من مضيق هرمز في اتجاه خليج عمان في خط مستقيم نحو المحيط الهندي، أو تتجه نحو بحر العرب لتمر في مضيق باب المندب فتدخل في البحر الأحمر وتنفذ من قناة السويس إلى البحر الأبيض المتوسط، لتصل إلى الدول الغربية.

وخطورة طريق النفط المتجهة من الخليج مروراً بالمحيط الهندي تطرح للدول الغربية تساؤلات، إجابتها أنها لن تقبل بأية عملية ابتزاز أو إنذار تهدف إلى تعطيل أو قطع خط النفط الحيوي أو المساس بمثل هذه المصالح وتهديدها، وكأن ذلك بمثابة تهديد للدول نفسها ما دام اقتصادها وصناعاتها ومصادر الطاقة لديها غالبيتها قائمة على نفط الخليج، من هنا ندرك استراتيجية موقع الخليج وممراته البحرية لنقل النفط الخليجي إلى بلدان العالم.

ثالثاً: الإمكان الاقتصادي لدول الخليج العربي

توزيع الثروة بين الناس في نظر الإسلام :

بين الله عز وجل في القرآن الكريم أن حياة الناس لا تستقيم إلا بتفاضلهم في الرزق، فذلك سنة من سنن الله في خلقه للبشر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (النحل: 71)، وبين الحكمة في ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام: 165)، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: 32)، فلولا أن يخدم الناس بعضهم بعضاً كل على قدر ما أوتي من طاقات، لتعطلت مصالح البشر.

وقد جعل الله عز وجل الغاية من توزيع الثروة في المجتمع الإسلامي ألا تكون بأيد قليلة، فذكر عز وجل العلة من توزيع قسم من الأموال على بعض الناس: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: 7).

فمن محاسن الإسلام وشمول شرعه وتكامل نظامه أن اهتم حتى بالثروة التي تكون في باطن الأرض (الركاز)، هل هي ملك عام أم ملك خاص؟ وفي عصرنا الحاضر فإن النفط والمواد الخام الموجودة في باطن الأرض هي مما يسمى عند الفقهاء (الركاز) أي ما ركز في الأرض خلقه أو بسبب.

التجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة:

لقد ازدهرت التجارة في الحقب التي سبقت الميلاد في منطقة الخليج، ويرى الباحثون أن هناك صلة كبيرة بين الفينيقيين وبين النشاط التجاري في منطقة

الخليج قديماً، وأنهم استقروا فترة في شواطئ الخليج، ثم انتقلوا إلى الساحل السوري، وأنهم سمو مدينة صور على ساحل البحر المتوسط باسم مدينتهم الأولى صور على شاطئ عمان.

وقد شهدت منطقة الخليج منذ أوائل القرن الرابع الميلادي حركة تجارية واسعة، وقد مثل الفرس هذه الحركة بإقامتهم علاقات تجارية مع الهند والصين ومنافستهم لحركة الأحباش التجارية عبر البحر الأحمر.

وظل الخليج شرياناً حيويًا وهمزة وصل في حركة التجارة العالمية مع الصين والهند، وبقي التنافس قائماً بين الخليج في ظل السيادة الفارسية وبين البحر الأحمر في ظل السيادة الرومانية الحبشية قبيل الإسلام، ورغم ذلك كان للعرب على الخليج عدة موانئ وكانوا قادرين على حمايتها واستغلال الثروات المحيطة بها من ناحية البر والبحر معاً⁽¹⁾.

واشتهرت منطقة الخليج في العصر الإسلامي بنوعين من الصناعة:

أولها: الصناعة التحويلية، وثانيها: الصناعة الخشبية والحديدية.

فالصناعة التحويلية يتم من خلالها تحويل صوف الأغنام وشعر الماعز ووبر الإبل إلى منسوجات متعددة الأشكال والألوان، وقد نسبت بعض الصناعات إلى البلد أو الأقاليم الذي نسجت فيه، فهناك الثوب الهجري الذي نسب إلى هجر، والقطري الذي نسب إلى قطر.. ومن أبرز الأنسجة في البحرين ومناطق الخليج: المناشف والملاحف والأحذية، والثياب والبرود والأردية.

(1) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص 212-213.

أما الصناعة الخشبية والحديدية فهي صناعة السفن التي ساهمت في فعاليات حركة الملاحة عبر الخليج، فقد أشار الشاعر طرفة بن العبد في معلقته إلى سفن ابن يامن قائلاً:

عدولية أو من سفين ابن يا من يجور بها الملاح طوراً ويهتدي اليد

وكان من أبرز صفات السفن الإسلامية في العصر العباسي الشراع المثلث.

والصناعة الحديدية في منطقة الخليج صناعة يدوية بسيطة تطلبتها احتياجات المنطقة محلياً في أعمال الفلاحة كصناعة المناجل والمساحي من قبل من امتهنوا أعمال الحدادة أو لغايات الحرب⁽¹⁾.

وتتوفر في سواحل الخليج وبعض المناطق الداخلية منه المياه في جوف الأرض، وقد أدى ذلك إلى زراعة الحنطة والشعير في بعض جزر البحرين، كما زرع القطن والحناء على شطوط بعض الأنهار.

وتبقى شجرة النخيل على رأس قائمة المحاصيل الزراعية، وينتج ساحل الخليج من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً أنواعاً كثيرة من التمور، وقد أصبح تمر هجر مضرراً للمثل فقيل: «كاستبضع التمر من هجر»، فالتمر بأنواعه المختلفة يعد سلعة دخلت ميدان المبادلات التجارية محلياً وعالمياً.

كما يزرع الموز والليمون والعنب وبعض الخضراوات الموسمية في مختلف مناطق الخليج وسواحله.

واهتم أهل الخليج في العصور المتأخرة باستخراج اللؤلؤ من البحار من خلال الغوص في أعماق المياه الخليجية، فيواجهون بثمانها متطلبات الحياة وتكاليف المعيشة

(1) المرجع السابق، ص 215 - 217.

من خلال هذا العمل الموسمي.

كما احتوت سواحل الخليج على أنواع متعددة من الأسماك، ساعدت بعض السكان على امتهان حرفة الصيد منذ القدم.

3- النفط مصدر الثروة الأهم:

دول الخليج العربي تتشابه إلى حد بعيد في هيكلها الإنتاجية، فاقتصاديات هذه الدول تعتمد بدرجة كبيرة على المصدر الأهم، أي إنتاج وتصدير النفط الخام والغاز وإيرادات المصادر الهيدروكربونية سواء في شكلها الخام أو المصنعة، فتشكل جزءاً كبيراً من صادرات هذه الدول، ومن إيرادات موازنتها العامة، ومن ثم من آلية تشغيل الاقتصاد المحلي في هذه الدول الخليجية.

وكان لاكتشاف النفط في حوض الخليج العربي الأثر الأكبر في تغيير معالمه الاجتماعية والاقتصادية، وتتنوع عوائد النفط في تلك الدول بين الميزانية العامة بهدف تنفيذ المشروعات التنموية المختلفة وبين المواطنين بهدف رفع دخولهم والارتفاع بمستواهم المعيشي، ويسهم النفط بأكثر من 85% من الميزانية العامة لدول الخليج العربي حتى يصبح أن تسمى هذه الدول بدول النفط⁽¹⁾.

لذا يمثل النفط مصدر الثروة الأهم حالياً بين المصادر الأخرى الضعيفة اقتصادياً، وقد ترتب على النفط ظهور طفرة عمرانية تتمثل في التجديد الشامل للمراكز العمرانية القديمة، والامتداد خارج أسوارها، والتمدد في ضواحيها، لإقامة مدن جديدة وحديثة العمران. لقد جلب النفط الخير والنعم الوفيرة لدول الخليج العربي وسكانه، وأدى ذلك إلى

(1) يحيى فرحان وآخرون، مرجع سابق، ص 257.

تنفيذ الكثير من المشروعات التنموية في تلك الدول، إلا أنه بالمقابل يعتبر سلعة عالمية لاغنى لكثير من البلدان الصناعية الكبرى عنه، فهو شريان الحياة وتنفسها لدى البلدان الغربية اقتصادياً، وكل ما يؤثر على هذه المعادلة يهدد النشاط الاقتصادي الغربي بأكمله، فحلقة النفط (إنتاج- نقل- أسعار) تعرضت دائماً لأخطار النزاع العربي-الإسرائيلي، علماً أن مضاعفات هذا النزاع، شجعت تركز القوى الكبرى حول المنطقة بشكل كبير وكثيف.

وأخيراً يمكن التمييز بين مرحلتين من مراحل الدخل والإنتاج الاقتصادي لدول الخليج العربي: هما مرحلة ما قبل النفط ومرحلة ما بعده.

ففي المرحلة الأولى: كانت عناصر الاقتصاد الخليجي قائمة على استخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك والرعي والثروة الحيوانية والزراعية والحرف التقليدية والتجارة. أما **المرحلة الثانية:** فقد ترتب على اكتشاف النفط وصناعته حدوث تغيرات جذرية في العلاقات الأساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأدت ملكية الدولة في الخليج للثروة النفطية وازدياد دخلها إلى تعاضم دور القطاع العام في عملية التنمية بمختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية، وزاد متوسط نصيب الفرد منه مما أدى إلى تزايد المدخرات المحلية للدولة في تمويل الاستثمارات.